العقيدة الإسلامية
وبناء الحضارة

بقلم
الدكتور
أحمد عبده محمود الجمل
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

إنه مما لاشك فيـــه أن الحياة الإنسانية المعاصرة تعيش مشكلة حضارية، بل أزمة حضارية، تعلن عن نفسها فى النطاق العربى الإسلامى عبر مظاهر من التخلف والتبعية والضعف والإنحدار القيمى والمعرفى، وتداعيات كل ذلك فى شتى المناحى والاتجاهات.

كما تعلن عن نفسها فى النطاق العالمى عبر دوامات الصراع، والنزوع المادى، والسيطرة العلمانية، وتداعيات كل ذلك فى شرق وغرب وشمال وجنوب العالم.

إن الإنسانية المعاصرة — بيقين — مريضة حضاريا، متأزمة حضاريا، قلقة حضاريا، ومن ثم تطالعنا دعاوى: العولمة وصراع الحضارات ونهاية التاريخ، أعراضاً لكل ذلك، الأمر الذى يمكن معه القول: إن هذه الإنسانية تقف فى مفترق، ترنو إلى آفاق باهتة، بعيون حائرة، فهل إلى خروج من سبيل؟.

ونحن — عربا ومسلمين — نعيش هـــذه الضائقة الحضارية بكل تداعياتها، وإذا كنا نشارك غيرنا فى الأسباب العامة لأزمة الحضارة، فإن أسباباً خاصة بنا ولنا نتحمل نحن مسئوليتها، وهنا نؤكد على عدة أمور:

الأول: إن أزمتنا الحضارية نحن المسلمين ترجع فى جوهرها إلى ما يمكن أن نسميه (أزمة اعتقاد) بما تنطوى عليه من:

إنحراف فى التصور العقدى.

تناحر مذهبى عقدى.

انحسار الهيمنة العقدية.

غياب قوة الدفع العقدى.

تفريغ العقيدة من عطائها فى جانب الكون والإنسان والحياة .

غياب التربية العقدية .

ضعف الوعى بالمرجعية العقدية .

الثانى : من هنا نقول — عن وثاقة — : إن أى تشخيص للأزمة الحضارية الإسلامية المعاصرة يتجاوز العقيدة الإسلامية ، كسبب أول ومرجعى ، فإنه لامحالة يضيع ويضيِّع .

الثالث : إذا كانت الأزمة الحضارية الإسلامية فى جوهرها ، ترتبط بالعقيدة ، فالمخرج إذن لاينبغى أن يبعد عن وجهة أساسية ، هى أن يكون هنالك بعث عقدى ، وهيمنة عقدية ، واقتحام عقدى فى كل الاتجاهات .

الرابع : ولأن الأمر كذلك ، ولأن مشاريع الإصلاح ، وجهود إعادة البناء ، تفقد — فى معظمها — الوعى الكامل بموقع الداء ، فإنها تفقد — من ثمة — وعيها بتحديد الدواء ، ولا شىء إلا الإخفاق .

نقول : إن المحاولات لم تجدِ ، ولن تجدى ، طالما وقع ، ويقع تجنب البداية الصحيحة . إن المشكلة فى جوهرها عقدية ، ولن يكون الحل الحاسم إلا عقدياً كذلك .

لقد كان الخلل الذى أصاب الأمة الإسلامية فى تحملها لعقيدتها عاملا حاسما فى انحسارها الحضارى ، سواء ما آل إليه الأمر من انحراف فى التصور العقدى ، أو من سطحية فى التحمل الإيمانى ، تراخى بها الدافع الإرادى للعمل الحضارى .

وهذا الخلل بمظهريه ، هو نفسه الذى يعوق الأمة اليوم عن الإنطلاق من جديد للنهوض الحضارى ، . . . فيكون إذن إصلاح هذا الخلل عاملا أساسياً من عوامل النهوض »[1] .

هنا البداية لاستيعاب الأزمة ، والبداية لتشريح الداء ، والبداية لإصلاح الخلل . والبداية لبعث حضارى إسلامى ، يخرج الحياة الإسلامية من كبوتها ، ويوقظها من غفوتها ، بل البداية لإصلاح عيوب التحضر الإنسانى ، هذه العيوب التى هى عيوب فى التصميم ، ومن ثم فهى عيوب فى الصميم .

لابد من أن ننهض حضارياً ، بأن ننهض عقدياً ، استجابة لدين كامل تام ، وإسهاماً فى تحضر إنسانى يتلافى عيوب التحضر الوضعى العلمانى القاتل .

وفى سبيل الكشف عن مدخلية العقيدة الإسلامية فى بناء الحضارة وتصميمها ، لابد لنا من معالجة عديد من القضايا ، من أولها :

— أهمية البناء العقدى الإسلامى للحضارة .

— خصائص العقيدة الإسلامية التى تبنى الحضارة .

— مرتكزات البناء العقدى للحضارة .

— المنهج العقدى الإسلامى لبناء الحضارة .

(١) مجلة إسلامية المعرفة : ص ٥٧ ، العدد الأول ، السنة الأولى ، المحرم ١٤١٦ هـ / يونيه ١٩٩٥ م يصدرها ، المعهد العالى للفكر الإسلامى .

(١) ونبدأ مع القضية الأولى، وهى أهمية البناء العقدى الإسلامى للحضارة :

هذا العنوان يحوى الإجابة، أو يحاول الإجابة عن سؤال يطرح كثيراً، عن حسن نية، أو سوء طوية، مضمونه : إن الحضارة — وبخاصة فى التاريخ الحديث والمعاصر — قامت واستقامت دون فاعلية دينية، بل إن تجاوز الدين كان هو النقطة التى تحرك منها الفكر الحضارى الحديث، ثم التشكل الحضارى الحديث.

فما الداعى إذن لجر الدين إلى ساحة القضية الحضارية، طالما أن متطلبات بنائها مكفولة من قبل الإنسان، وفاعليته العلمية والعلمية ؟

ثم، ما الميزة التى يعطاها الدين بعامة فى جانب الحضارة ؟

وما الميزة التى تعطاها العقيدة الدينية بخاصة . . . ؟

وما الميزة التى تعطاها العقيدة الدينية الإسلامية بصفة أخص . . . ؟

إن الأمر هنا يستحثنا لأن نجيب، ونجيب فنقول :

١ — لا يكاد يختلف المحللون كثيراً، حول جدلية أن الحضارة المعاصرة، رغم عنفوانها وعطائها، تعيش أزمة جد خطيرة، أقل ماتنبه إليه، هو أن شمس هذه الحضارة تؤذن بغروب.

وأدنى أسباب هذه الأزمة : طغيان المادة، وغلبة الصراع، وتضاؤل قيمة الإنسان. وكلها أسباب — لاشك — تتركز حول الطابع العلمانى لهذه الحضارة.

ومع ذلك، فإن التجربة الحضارية المعاصرة، لا تثقل فى ميزان الفقه الحضارى إلا بمقدار ما أنجزت مادياً، وليس ذلك هو كل شىء فى الصرح الحضارى.

٢ — أن القضية الدينية سجلت نجاحاً حضارياً، لم يستطع التاريخ تجاهله، بل ولن يستطيع، فكم من حضارة مثلت العقيدة الدينية كيانها وكينونتها، ولا يغيب عنا هنا حضارات قديمة تركت بصمتها على جبين التاريخ، من مثل الحضارة المصرية القديمة، أوحضارات الهند، والصين، والفرس، بل وحضارات الغرب القديمة، والتى من أبرزها الحضارة الرومانية، والحضارة الإغريقية.

إن الفاعلية الدينية حقيقة تاريخية دون شك، ومع ذلك فإن التجربة الحضارية هنا لا تثقل فى ميزان الفقه الحضارى، إلا بمقدار ما أنجزت روحياً، وليس ذلك أيضاً هو كل شىء فى الصرح الحضارى.

٣ — إن الإسلام أقام حضارة، عرفت به وله، فرضت وجودها على التاريخ، ولا زالت وستظل، رغم مابها، ورغم ماتعانيه. وما تعانيه إن عادت بعض أسبابه إلى أتباع هذه الحضارة، وعلاقتهم بدينهم وعقيدتهم، فإن بعضه عائد دون شك إلى أعدائها وأعداء الإسلام، الذين يخشون الإسلام كدين، ومن ثم يخشون التحضر الإسلامى.

ونقول هنا : إن التجربة الحضارية الإسلامية تثقل فى ميزان الفقه الحضارى بما قد قدمت وأنجزت مادياً وروحياً. وذلكم هو كل شىء فى الصرح الحضارى.

إن الحضارة الإسلامية قامت واستقامت، ونمت وأعطت بفاعلية عقدية بالدرجة الأولى، هذه الفاعلية التى تعطى فى كل الاتجاهات، علماً وعملا وقيما وسلوكا وخيراً، تعطى الإنسان الذى يبنى الحضارة، ويثرى الحياة.

ولأن حضارة الإسلام فى عنفوانها استقامت على سبيل من العقيدة، فإن تصميمها تصميم سليم، وبناءها بناء قويم، ومن ثم فإن عيوبها ليست عيوباً فى الصميم، بل هى من قبيل العيوب الطارئة، ولذا فإن حضارة العقيدة الإسلامية ولدت لتبقى، لا لتموت، تمرض نعم

تتأزم نعم ، ولكن يبقى أساس البناء سليما ، ويبقى جسد الحضارة قابلا للعلاج ، بالوصفة العقدية ، أولا وقبل كل شيء .

٤ — وحين نقول إن الدين يبني الحضارة ، والعقيدة الدينية الإسلامية تقيمها وتقومها ، فإن معناه أن ليس الأمر أمر تدين فقط ، بل أمر دين وعمران ، أمر بناء الإنسان ، أمر بناء الحياة على معطيات العقيدة في جانب الإنسان والعلم والقيم والسلوك والحكم ، إن العقيدة في الإسلام تهدينا الإنسان باني الحضارة ، وتهدينا الحياة القوية في كل متطلباتها وعطائها ، والتقدم في البحث ، سيبرز كل ذلك بمشيئة الله تعالى .

(ب) وبذلك ندخل إلى القضية الثانية ، وهي : خصائص العقيدة التي تبني الحضارة :

نكاد نجزم أن ليست عقيدة غير العقيدة الإسلامية تستجمع خصائص العقيدة البانيـــة ، فلا عقيدة وضعية ، ولا دينية ، تتكامل فيها خصائص بناء الحضارة .

بل إن هذه العقائد تصنف في جملتها إلى عقائد جانحة نحو المادية ، وأخرى جانحة نحو الروحية ، ومعناه افتقاد كل صنف خصيصة الصنف الآخر .

أما عقيدة الإسلام ، ولنقل الجانب العقدي الإسلامي ، فهو الذي يجمع بين طرفي المعادلة : المادة والروح .

إن عقيدة الإسلام عقيدة شاملة للإنسان وللحياة ، للدنيا وللآخرة ، للفرد وللجماعة ، للمادة والروح ، فلا يكون المسلم « مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ،

ولكنما المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه في جميع حالاته ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع .

إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية ، و . . . الاجتماعية هي المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية ، وهي المزية التي توحي إلى الإنسان أنه (كل) شامل ، فيستريح من فصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين ، ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق »[1] .

هذا هو الميزان الأول ، بل الوحيد في ترشح عقيدة ما لأن تكون بانية ، أو غير بانية :

— في العقيدة الإسلامية يتحقق التوازن الجميل بين طرفي المعادلة الحضارية :

المادة والروح — الدنيا والآخرة — الفرد والجماعة . . . إلخ .

— في ظلها يصير التحضر ضرورة إيمانية ، قبل أن يكون ضرورة عمرانية ، بل لنقل : ضرورة إيمانية عمرانية في نفس الوقت .

— في ظلها تتقدم الإنسانية نحو التعارف والتآلف والتكامل .

— في ظلها تتسع مساحة الحوار ، وتنبسط أرضية التفاهم ، بما تؤكده من وحدة الأصل كمنطلق إنساني ، ومن التعارف كمنهج علاقة ، ومن التقوى كقيمة جامعة وغاية كبرى .

— في ظلها يبرز الوعي الحقيقي بدور الإنسان في المنظومة الوجودية ، المتركز حول العبادة ، والخلافة ، والإعمار ، وهي ثلاثية النجاح في الدنيا والآخرة .

(١) الفكر الإسلامي ، مجموعة ، ص ٢٢٦ ، جامعة الامارات العربية المتحدة ، نقلا عن كتاب الإسلام في مفترق الطرق ، عباس العقاد ص ١٦ — ١٧

— فى ظلها تتجسد النظرة الكلية إلى التكاملية الوجودية ، وارتباط عناصرها بعضها البعض .

فالإنسان جزء من الكون ، والكون بأجوائه وعناصره يلتف حول الإنسان . مسخرا معينا . ولن يكتمل للإنسان وجوده إلا بالتفاعل الحميد بينه وبين الكون من حوله . مع الاعتراف بأنه سيد وفاعل .

— فى ظلها تمثل الحضارة بعدا عباديا ، مستويا على سوقه ، وبذا تخرج الحضارة من كهف الأرضية المادية المظلم ، فلا تكون عرضة للمادية الوجودية ، أو الوحدة الوجودية المادية ، التى أثبت التاريخ إفلاسها فكريا وواقعياً .

— فى ظلها تمتلك الحضارة مرجعية ثابتة ، تتحرك منها ، وتراجع حركتها بها ، وتجدد حركتها على طريقها .

— وقيل كل ذلك وبعده ، فى ظل العقيدة الإسلامية ، تصان إنسانية الإنسان ، ويتكامل بناؤه نفسيا وعقليا وروحيا وجسديا وقيميا ، وفى ظلها تبنى الحياة على كل مقومات التقدم والنمو والازدهار .

إن الحضارة التى تبنيها العقيدة الإسلامية هى الحضارة التى تبقى ناهضة نابضة ، وهى حضارة تولد لتبقى ، وتبقى لتنفع ، وتنفع لتشمل ، وتشمل لتسعد ، وتسعد السعادة الحقة لبنى الإنسان فى الدنيا والآخرة ، السعادة التى يريدها الحق سبحانه من الإنسان للإنسان .

وهنا لابد من الوعى بأن العقيدة بهذه المواصفات هى العقيدة القرآنية ، وعقيدة السنة الصحيحة ، عقيدة التوحد لا الاختلاف ، عقيدة الحياة لا المذهبية البغيضة ، عقيدة الدفع لا عقيدة الحواشى والمطولات والمختصرات .

العقيدة التى تمثلها مجتمع النبوة والسلف الصالح تمثلا نقيا مباشراً ، يستجيب فيه المسلم لبساطة الاعتقاد وفاعليته معا ، وتستجيب فيه العقيدة لحركة الحياة ، وطاقات الإنسان ، بعيداً عن تصانيف المصنفين ، وتمذهب المتمذهبين ، وتجادل المتجادلين ، وتفلسف المتفلسفين .

كانت العقيدة آنذاك صدقَ قلب ، ونبضَ حياة ، وإنتاج خير وعزة وقوة ، وقبل ذلك وبعده ومعه ، كانت إنتماء قويا ونهائيا ، يرويه الحب ؛ حب الله تعالى ، وحب الدين ، وحب الرسول الكريم المبلغ عن الله دينه ، والعقدى الأول فى الإسلام (صلوات الله وسلامه عليه) . « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »(١) .

إننا حين نطالب بضرورة البعث الحضارى على سبيل من العقيدة ، فإننا نطالب فى نفس الوقت بضرورة إعادة هيكلة البناء العقدى الإسلامى ، من حيث المفهوم والأولويات والقضايا ، والتفعيل الإرادى .

كما نطالب بضرورة تركيز التربية العقدية ، فى إتجاه خلق واقع عقدى سليم ، وإذا كنا نطالب بكل ذلك ، فلا يفوتنا أن نطالب بما يمكن أن نسميه (تقنين العقيدة) ، بما يمكن معه تفعيلها وترسيخها ، وأن تعامل معاملة منضبطة على قواعد من الإلزام والإلتزام ، والحماية والاحترام .

وفى ضوء ذلك ينبغى الالتفات جيدا إلى أنه تنبغى التفرقة دائما بين ما يقتضيه الاعتقاد داخل الجو الإسلامى ، وبين مقتضيات حراسة

(١) المائدة ، آية ٥٤ .

هذا الاعتقاد والدفاع عنه خارج هذا الجو ، بما يتطلبه من طرائق الجدل ومسالك الحوار .

إن الجدل الذى يمارس فى الدفاع عن الدين وحراسة العقيدة ، ينبغى أن يكون على قدر الحاجة والضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها ، وهذا مطلوب دون شك ، بل واجب قطعا ، لكن أن يتحول الأمر — داخل الجو الإسلامى — إلى شهوة ، بل إلى سلاح ، فى معركة الانتصار للمذهب أو تمرير الرأى ، فهذا مالا حاجة لنا به ، وهذا ما أوقع علم الكلام فى مآزق ومزالق ، أدت أكثر ما أدت إلى تعقيد القضية العقدية ، وتمزيق الوحدة الإيمانية ، وتهميش دور العقيدة فى الحياة .

إن المناخ العقدى الإسلامى ، من واقع الميراث الفكرى العقدى ، يمتلىء بأسباب الخلاف والاختلاف فى الأمة ، وبآليات التشهير والتكفير للأفراد والجماعات ، فى الوقت الذى يملى فيه علينا القرآن الكريم دروس الوحدة الإيمانية ، ليس فقط بين أتباع الدين الواحد ، بل بين أنبياء الله تعالى ورسله ، على اختلاف رسالاتهم وشرائعهم ، حيث يقوله سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية »(١).

ونضيف : إن ثبات البحث العقدى ، عند خطوط إثبات العقيدة ، والدفاع عنها ، والانتصار للمذهب ، كان على حساب الفاعلية العقدية وعطائها فى الحياة ، بل لحساب عطائها السلبى انسحابا وفرقة واختلافا .

ومع تقديرنا وإجلالنا للجهود كل الجهود التى بذلت وتبذل فى حقل الاعتقاد ، فإن أى جهد بذل ويبذل فى اتجاه تفعيل دور العقيدة فى حياة المسلم هو أكثر استحقاقا للتقدير والإجلال .

(١) الشورى ، آية ١٣ .

نريد صحوة عقدية ، تتكاتف فيها الجهود ، وتتكامل التوجهات فى سبيل تخليص المنظومة العقدية الإسلامية من الجدليات والمذهبيات ، وفى سبيل توسيع الدائرة العقدية ، وتقنين العقيدة ، وتفعيل العقيدة ، وإعداد مناهج التربية العقدية ، وصولا إلى أساس متين لبناء حضارى جديد ؛ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

(حـ) القضية الثالثة : دعائم البناء العقدى للحضارة :

هنا نحاول وضع أيدينا على مجمل الدعامات التى تؤكد عليها العقيدة الإسلامية لبناء الحضارة ، من باب الإصرار على أنه لا يبنى الحضارة إلا العقيدة ، وتقديم ملامح مشروع حضارى إسلامى ، مع التذكير بأن حضارتنا الإسلامية قامت واستقامت وأعطت بمدد من عطاء العقيدة . وأن الوعى بالعلاقة بين العقيدة والتحضر وعيا تاما ، هو مفتاح البعث الحضارى المأمول ، حتى لا تضيع جهود كما قد ضاعت من قبل جهود وجهود .

وبضاعتنا فى ذلك هو القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم هو سجل العقيدة الإسلامية الأول دون منازع ، حيث احتواها تأصيلا وتفصيلا .

إن القرآن الكريم يعطينا مباشرة المرتكزات التى يرتفع عليها صرح الحضارة ، وهى — بطبيعة الحال — مرتكزات عقدية ، تدخل فى صميم العقيدة ، بالقدر الذى تدخل به فى تصميم الحضارة .

أولا : قوله تعالى : خطابا للملائكة عليهم السلام : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ... » الآية(١).

(٢) البقرة ، آية ٣٠ .

هذا القول الكريم ينبه إلى حقيقة دور الإنسان فى الأرض، وهو الخلافة، هذه الخلافة هى وظيفة أرضية، لأنها فى الأرض، والحق سبحانه وتعالى، لما قال للملائكة هذا القول، قالت الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ...) الآية[1]، رد الحق تبارك وتعالى هذا الظن من الملائكة بقوله تعالى: (قال إنى أعلم ما لا تعلمون)[2]، أى ليس الأمر كما تظنون، وإذا كان ظن الملائكة هو أن يفسد آدم ويسفك الدماء، فإن علم الله تعالى الذى لا تعلمه الملائكة لاشك يكون فى عكس اتجاه ظنهم أى فى اتجاه الإصلاح، فالحق تبارك وتعالى أراد من جعل آدم خليفة، الإصلاح والإعمار، أراده مصلحا، ولم يرده مفسداً.

وهنا نعثر على دعامة أولى من دعامات الحياة على الأرض، وهى الإصلاح، والإصلاح أساس التحضر دون شك، وإذا كان الخليفة مؤتمنا، وهو مؤتمن قطعاً، فالله سبحانه وتعالى لا يأتمن على أرضه إلا مصلحاً وعاملا، لا مفسداً قاعداً.

وكأننا بالعقيدة الإسلامية هنا، تنبه إلا أن موقع الإنسان من الأرض، ومن الحياة على الأرض هو موقع الإصلاح والسعى، فإن وقع موقع الإفساد والعقود، فقد خان الأمانة، وخالف مراد الحق تبارك وتعالى.

ثانيا: قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... الآية »[3].

هذا القول الكريم، يمثل إعلانا حضاريا فذا، بل مشروعا حضاريا متفرداً، يرتكز على:

(١، ٢) البقرة، آية ٣٠.

١ — وحدة الأصل البشرى، بما تمثله من مساواة وتكافؤ.

٢ — وحدة العمران البشرى، القائم على الأسرة كنظام فطرى والتجمع شعوباً وقبائل كنظام عمرانى اجتماعى.

٣ — الإقرار بالخصوصية والتنوع (شعوباً وقبائل).

٤ — وحدة التوجه لهذا التنوع، وهو التعارف.

٥ — وحدة مقياس الامتياز، وهو التقوى.

ولاشك أن هذه كلها، أعمدة صلبة فى هيكل البناء الحضارى، وهى دون شك، من عطاء العقيدة، فالخلق والغاية منه قضية من صميم العقيدة.

ثالثا: قوله تعالى: « ... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ... الآية »[1]:

هذا التوجيه القرآنى العقدى، فيه الإعلان عن عنصر جوهرى ومحورى فى بناء الحضارة، ألا وهو الاستعمار، أو إرادة الإعمار، استعمار الأرض وإعمارها، وفى التعبير القرآنى المعجز لفت إلى أن الأرض من الناس، بمثابة الأم من الإبن، وهذه الأرض الأم، أو الأم الأرض، لها عليهم ما للأم الحقيقية، من الرعاية والعناية، هذه الرعاية التى لا تتحقق إلا بالإعمار وهو لا يكون إلا بالخير، ولاشك أن الإعمار للأرض هو أصل من أصول التحضر الإنسانى.

رابعاً: قول تعالى: « وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة ... الآية »[2].

(١) هود، آية ٦١. (٢) البقرة، آية ٣١.

هذا القول الكريم ينبه إلى أن آدم الإنسان الخليفة المعمر، قد تأهل لذلك بالعلم، وبقابلية التعلم، ومن ثم فهو يحقق إنسانيته بالعلم والتعلم، ويقوم بواجب الإعمار والخلافة بسبب من العلم، وفى ذلك الإشعار بأن ممارسة هذا الواجب هى من مهمات العالمين الواعين، وأن الإنسان بعلمه ووعيه حرى بأن يكون فاعلا فى الاتجاه الصحيح.

وهنا يبرز العلم كقيمة نابضة فى كيان الحضارة والحياة وكينونتيهما، كما تبرز قيمة العمل، فى هذا الكيان، فإن الحق تبارك وتعالى، لما علم آدم الأسماء كلها، كان ذلك - يعنى الاتجاه فى التعليم إلى العلم العملى، لأنه تعليم لا من أجل العلم التام بالأشياء فى حد ذاتها، إذ لا قبل لمحدودية الإنسان بذلك، ولكنه من أجل التعامل مع الأشياء، إعدادا لوظيفة الخلافة»[1] فى الأرض، وكل ذلك من إملاء المنظومة العقدية الإسلامية.

خامسا: قوله تعالى: «أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون»[2].

هذا القول الكريم يشير إلى أن البشر مسخر بعضهم لبعض، بحيث إن كل إنسان، وكل جماعة، يقوم وتقوم بدور تسخيرى فى اتجاه الآخرين على نحو ما، فالكل مسخر ومسخَّر فى نفس الوقت.

ويدلنا ذلك على تفاعل الجنس البشرى، وتكامل حركته، الأمر الذى يتعين معه نبذ التنافر والاستعلاء، الذى يكون بهما التصادم والصراع ولاشك أن الحضارة هى حصيلة جهد إنسانى متكامل ومتوازن.

(١) قصور العلم كأساس فى حاجته إلى التوجيه، د/ يحى هاشم حسن فرغل، ص ٤٧، جامعة الإمارات العربية المتحدة.
(٢) الزخرف، آية ٣٢.

سادساً: قوله تعالى: «ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ....»[1]، فيه الوجه الآخر للتسخير، وهو تطويع عناصر الكون للإنسان.

فالحق تبارك وتعالى، لما ناط بالإنسان الخلافة والإعمار، أعانه على ذلك بتسخير عناصر الكون وظواهر الطبيعة، فهى له مطواع، منقادة مأمورة، فلا عذر له إذن، ولا عقبة أمامه، فقط يسخر ويستفيد وينتفع ولا يطلب منه إلا قراءة كتاب الكون قراءة علمية، حتى يفتح الله عليه من أسرار الكون وسننه ما يجعله يطور وضعه، ويطور الحياة من حوله، وليشيد الحضارة، برشاد وإصلاح، فـ «الله لا يحب الفساد»[2].

سابعاً: قوله تعالى: «ألا يعلم من خلق؟»[3]، وقوله سبحانه: «ألا له الخلق والأمر»[4].

كل ذلك يهدى إلى حقيقة عقدية، هى أن الله تعالى هو الخالق، وأن من خلق يعلم الذى خلقه قطعاً، وأنه تعالى بمقتضى الخالقية هذه والعالمية له الأمر، أى حق تقنين حركة الخلق، وضبط حياتهم.

ومن ذلك نعثر على قاعدة من قواعد التحضر الإنسانى الأساسية، وهو النظام الضابط، والقانون الموجه، والتشريع الحاكم، ولاشك أن فاعلية الحضارة ورقيها مربوطان بقيمة النظام السائد، والقانون المتبع.

فإن يكن النظام، نظام الله تعالى، والقانون قانونه سبحانه، تكن الحضارة الراقية الرشيدة، التى تحترم العلاقات، وتصون الحقوق، وتحمى وجودها قبل كل ذلك.

(١) لقمان، آية ٢٠.
(٢) البقرة، آية ٢٠٥.
(٣) الملك، آية ١٤.
(٤) الأعراف، آية ٥٤.

ثامناً : قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . . . الآية »[1] :

هذا القول الكريم يشير إلى :

١ — أن العبادة هى الغاية من خلق الإنسان .

٢ — وأن الإنسان بحكم خلقته عابد .

٣ — وأن العبادة هنا موقف عقدى ، مرتبط بالخالقية الإلهية والمخلوقية الإنسانية .

٤ — وأن هذه العبادة نسق حضارى ، موصول بوظيفة الإنسان فى العملية الحضارية ، التى قلنا إنها وظيفة الخلافة والإعمار .

٥ — وأن هذه العبادة لله تعالى ، تعنى أن ينخلع الإنسان عن كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى ، أى التحرر الحقيقى والحرية الكاملة . فهل نحن هنا أمام نسق سياسى اجتماعى تتأكد فيه حرية الإنسان وتحرره ؟

٦ — أن هذه العبادة ، حيث تعلى الإنسان عن أسباب الخضوع لغير الله تعالى ، تبنى الإنسان القوى الواثق المطمئن ، الإنسان الحائز كل عناصر القوة والاقتحام .

٧ — أن هذا كله وغيره يهيئ البناء الحقيقى للإنسان ، الذى يبنى الحضارة ، إن الإنسان هو الذى يقيم الحضارة ، ويبنى الحياة ، ويصنع التاريخ ، وقد أهله الحق تبارك وتعالى للاضطلاع بذلك ، ذلك أن قوة الحضارة ، من قوة بانيها وراعيها .

وعطاء العقيدة الإسلامية فى جانب الإنسان عطاء غير مجذوذ ، فكل

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

قيمة أكدنا عليها فى تركيب الحضارة هى قيمة للإنسان أساسا .

إذن الإنسان فى المنظور العقدى هو القيمة الأساس فى البناء والفاعلية ، وكل القيم والعناصر الأخرى إنما هى لبنات فى بنائه وبنيانه هو ، ليكون العابد لله تعالى ، والعابد بالاعمار والإصلاح ، بموجب الأمر الإلهى « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »[2] .

نعود لنقول : هذه الآيات الكريمات صاغت لنا مرتكزات التحضر صياغة كلية شاملة ، وفى مزيد البحث مزيد من العطاء القرآنى فى مجال الحضارة .

ونقول : إن هذه المرتكزات من إملاء العقيدة الإسلامية فى قضاياها الأساسية .

ومن ثم فإن بناء الحضارة فى الإسلام هو من نسيج الإيمان ، بعناصره العقدية المتكاملة ، وأن إقامة الحضارة يصير واجباً إيمانياً ، وإقامة الإيمان تصير واجباً حضارياً .

إننا حين نفرط فى شئون حياتنا ونبدد عنفوان حضارتنا ، فما ذلك إلا لخلل فى إيماننا أولا وقبل كل شىء ، خلل فى المنظومة العقدية الإسلامية من حيث ، ومن حيث ، ومن حيث . . .

وحين نرغب فى تكميل إيماننا ، فلابد أن نرغب فى إقامة حضارتنا ، وحين نرغب فى بعث حضارى ، فلامندوحة عن بعث إيمانى أولا .

نبنى حضارتنا بالإيمان ، ونصون إيماننا بالحضارة ، هذا هو الحق والواجب معاً ، ومحاولات إعادة البناء إن تتجنب هذه الحقيقة ، فلا أمل ، ولا جدوى من عمل .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٧ .

(د) ونأتى إلى القضية الرابعة وهى :

المنهج العقدى فى بناء الحضارة

لما تيسر لنا التعرف على دعامات البناء العقدى للحضارة ، صرنا أمام المنهج العقدى ، الذى يضع الحضارة موضع التنفيذ ، ويضع خطوات إقامة الصرح القوى المتماسك .

ونثق فى أن هذا المنهج ، يقيم الحضارة من خلال العمل فى اتجاهين متكاملين وضروريين معاً ، هما : الإنسان ، والحياة .

فالإنسان : هو بانى الحضارة ، والحياة هى بيئة الحضارة .

إن منهج العقيدة فى بناء الحضارة — فى ظننا — يتأسس على بناء الإنسان وبناء الحياة بكل جوانبها وعناصرها ، ومن ثم يكون أمامنا قضيتان : قضية بناء الإنسان ، وقضية بناء الحياة .

أولا : بناء الإنسان :

يقول مالك بن نبى (رحمه الله): « إن كل تفكير فى مشكلة الإنسان هو تفكير فى مشكلة الحضارة »[1] ونحن نقول : إن إنسان العقيدة الإسلامية لا تناله مشكلة ، والحضارة التى تقوم على أساس من هذه العقيدة لا تثير مشكلة .

ونقول : إن أزمة التحضر الإنسانى المعاصر تكمن فى الإنسان ، وأزمتنا نحن المسلمين المعاصرين تكمن فى موقعنا من العقيدة ، وموقع العقيدة منا .

---

(١) نقلا عن دراسات فى الفكر الإسلامى ، عدنان زرزور ، ص ٢١ ، ط١ ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م مكتبة الفلاح ، الكويت .

ونستطيع أن نتبين ملامح المنهج العقدى فى بناء الإنسان ، والإنسان المسلم ، مركزة فى الآتى :

١ — الإيمان :

إن الحضارة الإسلامية فى قوتها ونهضتها وعنفوانها أقامها الإنسان المسلم صحيح الاعتقاد ، سليم الإيمان ، ومن ثم لم يكن بدعا أن يكون الإيمان هو الجانب الأساس الذى بدأ به الإسلام تكوين شخصية المسلم فالإيمان دائماً هو العنصر الذى يبنى الإنسان من داخله ، ويصوغه قلبياً ونفسياً وفكرياً وإرادياً ، فيصير قلبه المفعم بالإيمان ، هو المحرك للعواطف ، والموجه للإرادة ، ومتى صحت عناصر الإيمان فى إنسان استقامت لديه الأساسيات الكبرى ، فسلك طريق الهدى والرشاد .

والإيمان الذى تؤسسه العقيدة الإسلامية ، هو ذلك الإيمان الذى يعانق الفطرة فى سلامتها وبساطتها ، ويخامر العقل فى نضجه وحيويته ، ويخالط القلب فى طهارته ونقائه .

هو الإيمان بالله تعالى ربا واحداً خالقاً ، وإلهاً واحداً معبوداً ، إليه المرجع والمصير ، وهو الإيمان الذى يؤسس علاقة الإنسان بالكون من حوله ، وهو الإيمان الذى يجد فيه الإنسان جواباً عن الأسئلة الكبرى ، وعلاجا لمشكلاته الكبرى ، أسئلة البدء ، والنهاية والمصير والغاية وهو الإيمان الذى يستشعر فيه الإنسان قيمته ، ويحقق كرامته ، ويعى وظيفته ، ومبرر وجوده ، وهو الإيمان الذى يجعل الإنسان يعمل للدنيا ولآخرته ، لشخصه ولجماعته ، على محور الطاعة والعبودية والحب لله تعالى ولرسوله الكريم .

ولأن الإيمان أساس فى بناء كيان المسلم ، ألفينا جهاد الدعوة الاسلامية فى حياة رائدها (ﷺ) ، وفى فترة غالبة منها ، متوجها إلى العقيدة ،

تخلية وتحلية ، إزاحة للباطل المتركز فى الشرك والوثنية والمادية ، وزرعا لعقائد الحق المتركزة فى التوحيد والبعث وإسلام الوجه لله تعالى .

ولما تحقق ذلك ، وجدت الشخصية المؤمنة المسلمة الموحدة ، ومثل الصحابة والتابعون والسلف الصالح رضوان الله عليهم أفضل نماذجها ، وأعلى مراتبها .

هؤلاء الذين أرسوا بناء الحضارة الإسلامية ، وأقاموا مجتمع التحضر الفريد قوياً عزيزاً ، مجتمع التوحيد والوحدة والعمل والقوة ، مجتمع لا إله إلا الله محمد رسول الله .

الحرية والتحرر :

الإنسان الحر النفس . . العزيز الجانب ، المتحرر من آلهة الشرك والوثنية ، هو الذى تعز به الحياة ، ويعز الحياة .

والعقيدة الإسلامية تصوغ المسلم صياغة الحرية والتحرر ، بما تفرضه من التوحيد الخالص ، البرىء من أوضار الشرك والوثنية ، وهما درجات من العبودية العمياء ، لقوى صماء لا تملك من أمر نفسها ولا غيرها شيئاً .

أن يتخلص قلب الإنسان من كل الآلهة والمعبودين ، غير الله الرب الواحد المعبود ، فهو الحر على الحقيقة ، والمتحرر على الحقيقة ، إن كمال الحرية للإنسان فى كمال العبودية لله تعالى وحده . وهنا نعثر على مستوى من الحرية لا توفره أقوى الديمقراطيات وأعتى النظريات ، حرية القلب والنفس والروح ، حرية الداخل ، المشعة على الظاهر بردا وسلاماً ، أمناً وسكينة ، ثقة وإطمئناناً ، أملا ورجاء . الحرية التى تصون إنسانية الإنسان وتؤكد آدميته ، لا حرية الأنظمة والمعتقدات الباطلة ، التى إن خلصت

الإنسان ، من وثن ، أوقعته فى براثن أوثان ، وإن حفظت له كرامة ، أهدرت له بالمقابل كرامات ، وإن أعطت لطائفة ، حرمت فى مقابلها طوائف ، وإن أفلحت فى تحرير الظاهر ، فإنها تفشل فى تحرير الباطن .

التوكل على الله تعالى :

والتوكل على الله تعالى من مقتضيات الإيمان ، وهو فى صورته الصحيحة ، يبنى الإنسان نفسياً وسلوكياً ، ويدعمه بالطاقة الحافزة إلى العمل والأخذ بالأسباب ، دون كلل أو يأس أو نكوص .

إذ حقيقته أن يثق الإنسان فى الله تعالى ، ويكل أمره إليه ، ويعمل ما وسعه العمل ، ويدع النتائج لله تعالى وحده ، فإن جاءت وفق ما يرغب فليحمد الله ، وإن جاءت غير ذلك ، فليراجع نفسه ويرضى ثم يستأنف العمل من جديد .

ولا شك أن التوكل على الله تعالى دعوة قرآنية ، وسلوك حققه رسول الله (ﷺ) . على أتم ما يكون ، وحين يتمثل المسلم التوكل بمعناه القويم ، يصير طاقة فاعلة فى اتجاه العمل والإنتاج ، واتجاه الأخذ بالأسباب المناسبة لكل عمل يعمله . ويكون فى حاليه : الفشل والنجاح ، شاكرا راضياً قوياً لا ينكسر ولا يندحر .

المسئولية :

الإنسان المسئول ، والمستشعر لمسئوليته هو الذى يصنع نفسه ويصنع الحياة من حوله ، فالمسئولية دائماً تخلق الجدية والصبر والإصرار ، والمستشعر لمسئوليته هو الذى ينتج ويضيف ويحقق الخير والفلاح .

وإنسان العقيدة الإسلامية هو المسئول حقاً ، وسائله هو ربه خالقه

وبارئه ، ومسئولية الإنسان فى اعتبار العقيدة الإسلامية هى الخلافة والإعمار ، والعبادة والعمل ، وهى مسئوليته عن خياراته واختياراته ، ومسئوليته عن أمانة التكليف تركا وفعلا ، خيرا وشرا ، إحساناً وإساءة ، مسئوليته عن السعى فى الأرض لطلب الرزق ، مسئوليته إلى حدود الكبد « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »[1] .

إن الإنسان المسلم هو الإنسان المكلف ، والإنسان المكلف ، هو المسئول .

وقد جاء التكليف للإنسان عاماً وشاملا ، فكانت مسئوليته عامة وشاملة . والحق تبارك وتعالى لما شاء أن يكون الإنسان مكلفاً مسئولا ، خلقه وسواه وعدله لممارسة هذه المهمة الواثعة . فكوّنه تكويناً خاصاً ، يمكنه من الاختيار والموازنة .

وأودع فيه الاستعداد لتحمل المسئولية ، وأمده بالآلات التى يمارس بها أعماله وخياراته . ووضعه دائماً فى موقع الاختيار « وهديناه النجدين »[2] ، وموقع التحمل لهذه الاختيارات ، ورتب الجزاء الحافز والرادع ، لإحسان الاختيار ، واستشعار المسئولية . كل ذلك وغيره ، جعل من الإنسان مسئولا ، وأهلا للمسئولية ، والمسئول هو دائما الذى يبنى الحياة ، فيبنى الحضارة .

التوازن :

الإنسان المتوازن ، هو دائما المؤهل لأداء دور إيجابى تجاه نفسه ، وتجاه ما ومن حوله . والعقيدة الإسلامية تصوغ هذا الإنسان صياغة

(١) البلد ، آية ٤ . (٢) البلد ، آية ١٠ .

متوازنة ، إذ تحترم فيه طبيعته التى خلقه الله عليها ، وهى الطبيعة المتآلفة من المادة والروح ، والمتكاملة مع طبيعة الوجود والكون من حوله ، فلا هو إنسان المادة فتنحصر حركته ووجوده فى جانب ضيق من الحياة ، غايته فيه تحصيل المتع واللذائذ المادية الأرضية ، ولا هو إنسان الروح ، الذى يحتقر هذه المتع ويزهدها بالكلية ، وتنحصر غايته فى جانب ضيق كذلك ، بل هو الإنسان الذى خلقه ربه وسواه من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، فالطينية المادية فيه حقيقة ، والروحية السامية فيه أيضا حقيقة ، وبين الحقيقتين تكامل حميد ، وتواصل فريد ، وتعادل عادل .

هذا التكامل والتواصل والتعادل هو آية الإنسان ، كما أراده الله تعالى ، وهو فطرته وطبيعته التى لا تتوازن إلا به ، ولا تتحقق إنسانيته إلا به كذلك .

ومن ثم فالعقيدة الإسلامية تحترم إنسانية الإنسان ، باحترام كل العناصر الداخلة فى بنائه ، من الغرائز والارادة والعقل والجسد والروح ، وتحترم مطالب هذه الإنسانية واحتياجاتها الأساسية ، ولا تحيف على جانب لحساب آخر .

وليس من شك فى أن احترام كل ذلك . هو تأكيد للتوازن المرغوب . وأى إخلال بهذا التوازن هو إخلال بطبيعة الانسان ، والإخلال بطبيعته إخلال بالدور المرغوب منه .

لن يبنى الحياة إنسان مادى ، ولن يبنيها إنسان روحى ، بل إنسان متكامل متوازن ، وهذا ماوفرته وتوفره دائما العقيدة الاسلامية الفذة .

الإبتلاء :

الابتلاء قانون نافذ فى الإنسان والناس، يقع الإنسان تحت سطوته فى حالى المصيبة والعافية، الخير والشر، الصحة والمرض، الغنى والفقر.

وحقيقته : امتحان الإنسان بما بين يديه، وبما يتعرض له، ليعرف الصابر والشاكر من الجازع والناكر.

والابتلاء إنما هو تمحيص وتربية وامتحان واختبار وخبرة، ومع كل ذلك إعداد للإنسان، وتأهيل له، نفسيا وأخلاقيا وإيمانيا، حتى تتماسك شخصيته، ويقوى على معالجة المحن والمصاعب والموانع والحوائل، بل على معالجة الأمور كلها، حسنها وسيئها، مسرها ومحزنها، خيرها وشرها، مصداقاً لقوله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة . . . »[1].

والابتلاء معلم قرآنى يتبدى فى وفرة من النصوص المحكمة، ومعها وفرة من نصوص السنة المطهرة.

والابتلاء فى تصوره الصحيح، هو من نعم الله تعالى على الإنسان، الذى كثيراً ماتبطره النعمة. وتيئسه الكارثة. فيأتى الابتلاء ليضع الإنسان بين حالى الشكر والصبر، حتى لاتكون النعمة بين يديه وبالا عليه وعلى الآخرين، وحتى لاتكون المصيبة نكالا عليه وعلى الآخرين.

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذى إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا

(١) الأنبياء، آية ٣٥.

لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »[1].

وإنسان العقيدة الإسلامية، هو الإنسان المعروض دائماً على الابتلاء بل إن التركيبة الإنسانية الفذة هى تركيبة ابتلائية، إذ وجود الإرادة فى الإنسان والعقل والغريزة والشهوات، تجعله دائماً فى موقع الموازنة والاختيار ثم المسئولية والجزاء.

وإنسان العقيدة الإسلامية الابتلائى هذا، هو ذو الشخصية المتوازنة المتماسكة المطمئنة المؤمنة، الراضية المرضية.

ومن ثم فهو الإنسان الذى يتقوى بالمصيبة، ويتواضع بالعافية، فهو من ثمة يكابد الحياة بكل حالاتها وأحوالها، وتعانق فطرته فطرتها، فهو إذن الذى يترشح لمعالجتها، ومعايشتها وإفادتها والإفادة منها، فهو إذن جدير ببناء الحضارة وإعلاء صرحها.

الأمل والاطمئنان :

الإنسان المطمئن المؤمل، هو الإنسان المتفائل الواثق، لا البائس اليائس، القلق الفزع، فهو الجدير بالعطاء والبناء.

وإنسان العقيدة الإسلامية هو هذا الإنسان المفعم بالإطمئنان، الموصول بالأمل، المقبل إذن على العمل.

فالله سبحانه لايضيع أجر من أحسن عملا، ولايستوى عنده المسلمون والمجرمون، ولاالذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين اجترحوا السيئات، وأن المحسن يتعرض للجزاء الحسن فضلا من الله، وأن المسىء يتعرض للعقاب عدلا منه تعالى.

(١) البقرة الآيات : ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

العـــلم :

إن العلم لبنة أساسية فى بناء الحضارة ، فلا غرو يكون العلم عنصرا فى بناء الإنسان الذى يقيم الحضارة ويشيدها ، والعقيدة الإسلامية التى تبنى الإنسان التفتت بقوة نحو العلم ، حتى جعلت منه ملمحا واضحاً من ملامح إنسانيته ، فالإنسان يحقق إنسانيته بالعلم ، وكلما أوغل الإنسان فى طريق العلم كلما أوغل فى طريق تحقيق وجوده وكيانه .

يدلنا على ذلك أن الحق تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها ، ثم جعل ذلك من أسباب امتيازه وتفوقه على الملائكة عليهم السلام ، الذين أعلنوا هم عن ذلك لما قالوا : « ... سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »(١) .

فآدم الإنسان هو آدم الذى علمه ربه الأسماء ، حتى يؤهله لأداء وظيفته التى أراده الله لها وهى الخلافة والإعمار ، وإذا كان العلم هو مناط امتياز آدم عليه السلام عن الملائكة الأطهار ، فهو مناط الامتياز بين بنى البشر بعضهم البعض « ..... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب »(٢) .

ونعى على الذين يعطلون قواهم العارفة بأن جعلهم فى مرتبة الأنعام ، بل هم أضل : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »(٣) .

(١) البقرة ، آية ٣٢ . (٢) الزمر ، آية ٩ .
(٣) الأعراف ، آية ١٧٩ .

ولأن العلم هو قضية الإنسان فقد هيأه الله تعالى بكل القوى والآلات التى تجعله على وعى وعلم ، وعلى استعداد لممارسة هذا الوعى والعلم ، حيث زوده بالعقل والقلب والحس والإرادة ، ومع ذلك حببه فى العلم ، ورفع منزلة العالمين ، حتى يقبل عليه وينتهج طريقه ، ويمارس حياته فى ضوء نبراسه .

ولقد نجد ثمة أن تطور الحياة ومنشأ الحضارات ارتبطت بلون العلم وسماته ، إن الإنسان خلق ليعلم ، ويعلم ليعمل ، ويعمل ويعلم ليبنى الحياة ويشيد الحضارات . ولنا مع العلم وقفة أخرى إن شاء الله .

ثانياً : بناء الحياة :

الساق الثانية من منهج بناء العقيدة الإسلامية للحضارة هى ساق بناء الحياة ، فحيث تبنى العقيدة الإنسان ، فهى تبنى مع ذلك الحياة ، وتبنيها بكل دعائم وقيم الحياة القوية السليمة المتماسكة ، ومن ثم يصير بناء الحياة مطلباً إيمانياً ، بل واجبا إيمانيا ، يندفع إليه المسلم والجماعة المسلمة بقوة إيمانية وتوجيه إيمانى وغاية إيمانية ، لا يكمل إيمان المسلم إلا بأن يكون فى خضم الحياة بانيا فاعلا صالحا مصلحا .

وباستقراء دعائم بناء الحياة عقديا ، نستطيع التأكيد هنا على عدد منها ، نوجز الكلام عليه فى الآتى :

العـــلم :

نعود إلى العلم هنا بعد أن ودعناه قبل قليل ، ونحن نتحدث عن أسس بناء الإنسان .

ونعود إليه لنقول : إن العلم مع أنه أساس فى بناء الإنسان فهو على نفس القدر أساس فى بناء الحياة .

فالعلم ركيزة صلبة يستند عليها هيكل الحضارة النامضة ، والعلم فى الإسلام يكتسب مفهوما رحبا واسعا ، فهو علم ترقية الحياة فى كل اتجاهاتها وعلم الدين فى جميع توجهاته ، هو — بالاجمال — علم الدين والدنيا .

والعقيدة الإسلامية بخصوصها ، هى منطلق العلم فى الإسلام ، ومحركه الأول ، يدلنا على ذلك :

١ — تعليم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها ، بموجب قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ... »[1] الآية ، وذلك يفيدنا عقديا :

- أن قضية الإنسان هى العلم .
- أن العلم عام ، حيث كان للأسماء كلها .
- أن العلم طريق ممتد يسير فيه الإنسان ما استطاع أن يسير .
- أن العلم هو آية إنسانية الإنسان ، وأمارة فضله وامتيازه .
- أن العلم إنما هو من أجل التعامل مع الأشياء .
- أن العلم هو سبيل أداء الإنسان لوظيفته على الأرض .
- أن الإنسان فى اعتبار العقيدة الاسلامية هو من يعلم ويتعلم .

وهذه كلها عناصر عقدية ، أقل ما تتركز حوله هو أن الحياة يبنيها الإنسان ويبنيها بالعلم ، وأن الإنسان دائما فى خضم العملية التعليمية تعلما وتعليما .

٢ — أن الإنسان وقد فطر على العلم وتهيأ له ، وأعطى الآلات والأدوات التى تعينه على أن يتعلم ويعلم ويفكر ويقدر ، هذا الإنسان

(١) البقرة ، آية ٣١ .

تنفسح أمامه آفاق الكون ، وتنبسط له عناصره وكائناته ، لا يصده عنها صاد ، ولا يحول بينه وبينها حائل .

فالكون كتاب مفتوح ، معروض دائماً على عقل الانسان ووعيه فهما وتعقلا واستنباطاً وتوظيفاً ، وتأملا وتجريباً ، وفى هذا الصدد ينبغى التأكيد على عدة أمور :

(ا) أن العقل فى اعتبار العقيدة الاسلامية لا يعزل عن جانب معرفى يكون مؤهلا لممارسته والإفادة فيه ، أما الجانب الذى لا يتأهل لممارسته ، فلا يقبل أن يدخل إليه العقل أو يتدخل فيه ، ونخص بالذكر هنا مجال الغيب ، أو نطاق الميتافيزيقا ، وقضايا الوحى التى ليست من بضاعة العقل فى شىء ، أما الكون الطبيعى بكل عناصره ومظاهره فهو ساحة مبسوطة ، وأفق ممتد .

(ب) أن العقل وإن حجب عن نطاق الغيب وقضايا الوحى ، فلم يحرم من العلم بهما ، بل جاءه علم ذلك عن طريق يقينى صحيح ، هو الوحى ، ولاشك أن ذلك فوق أنه احترام للعقل ، فهو رحمة به بالدرجة الأول ، لأن الزج بالعقل فى مجال ليس هو مجاله ، لاشك يكون تكليفاً له بما فوق الطاقة ، وقذفا به فى متاهات لن يصل فيها إلى ساحل .

العقل حقاً له نطاقه المعرفى ، والعلم أوسع وأشمل من نطاق المعرفة العقلية . ومع ذلك فنطاقات العلم الأخرى ، حسية أو قلبية أووحيية تقدم إلى العقل المعرفة فى تنوعها وتكاملها .

بل إن للعقل مدخلاما فى ما قد عزل عنه ، هو من قبيل بحث الوسائل والطرق والمصالح المرتبطة بقضايا الغيب والتشريع ، فإذا عزل العقل مثلا عن البحث فى الذات الإلهية ، فليس معزولا عن تحرى الطرق والدلائل الهادية إلى معرفة وجود الله تعالى وهكذا .

(ج) فى هذا الإطار فإن العقل الإنسانى ، بل الإنسان مدعو إلى تكثيف جهده فى إتجاه فهم الكون ، والعلم به ، وتوظيفه . وذلك ما يفيد فى جانب الحضارة والحياة،فالتصور العقدى الإسلامى قائم على حقيقة أن الوجود كله من خلق الله تعالى ، أبدعه بقدرته ، وفق علمه وإرادته ، وأنه يسير على سنن وقوانين مخلوقة لله تعالى ، وعمل الإنسان هو أن يمد حركته فى هذا الكون إلى ماشاء الله تعالى ، دارسا ، باحثا ، مكتشفا ، موظفا ، مفيدا مستفيدا . . . إلخ .

إن سنن الله تعالى وقوانينه فى الحياة والوجود معروضة على أى جهد علمى صادق ، ودعوة القرآن الكريم إلى العلم ، والنظر فى الأنفس والآفاق ، والسير والنظر فى الأرض ، هى دون شك دعوة إلى تفعيل حركة الحياة وتطورها ، دعوة إلى التحضر دون شك .

ولكى يتمحض جهد الإنسان المعرفى فى نطاق الطبيعة والكون الطبيعى ، أغناه الوحى — كما ذكرنا — بالمعارف التى لو أراد أن يطالها مستقلا ، لاستنفذ طاقته وحيلته دون طائل ، ولوقع فى أخطاء قاتلة ، ولا انصرف عن نطاقه وهو الطبيعة والحياة .

ولما كان العقل الإنسانى يطمح بطبعه إلى استجلاء الإجابة عن أسئلة ملحة ، بل وفطرية ، تتعلق بالمبدأ والمصير والغاية ، ثم هو بنفسه مستقلا لا يقوى على تحصيل الإجابة الشافية الوافية الكافية ، ومن ثم أثبت التاريخ أن جهد العقل المستقل فى هذا الصدد قد سجل أخطاء قاتلة ، وأضاع جهدا عزيزا ، ولم يلته إلى ما يقنع ، فقيل من ثمة : إن الفلسفة هى سجل أخطاء العقل البشرى .

لما كان ذلك كذلك ، فقد أهدت العقيدة الإسلامية إلى العقل الإنسانى الإجابة عن هذه الأسئلة الخالدة وأمثالها ، رحمة به ، وتفريغا له

إلى مهمته الأولى وهى البحث فى الطبيعة والكون الطبيعى ، وفاء بواجب الخلافة والإعمار ، ومن هنا يصير جهد العقل الإنسانى فى إتجاه العلم ، جهدا خلاقا ومثمرا ، جهدا فى إتجاه التحضر وتنمية الحياة .

ولو وعى الإنسان هذه الحقيقة ، واستوعب دوره وعرف تماما نطاقه لأفاد أكثر ، واستفاد هو أكثر ، فاستفادت الحياة وعمق مجرى الحضارة الإنسانية .

(د) أننا نلحظ أن آيات العلم ، والحث عليه بالسير والنظر ، ورفع قيمة العلماء ، وغير ذلك ، دائماً ما تكون فى سياق الحديث عن الإيمان والأمور العقدية ، وتحرى اليقين فى تحصيل العلم دائماً ، كأساس لمنهج تحصيل المعرفة .

إذ قل أن تجد آية تحث على العلم ، وعلى بلوغ مستوى اليقين فيه ، أو تشيد بالعلماء ، أو تحفز على السير فى الأرض والنظر فى الأنفس والآفاق إلا وهى فى نطاق الاعتقاد ، وإلا وهى آية عقدية ، أولها ارتباط بالعقيدة على نحو ما .

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن العقيدة فى أخص ما يخصها وهو التوحيد تتأسس على العلم ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله . . . »[1] الآية ، وضح لنا :

— أن العلم فى الإسلام عقدى ، والعقيدة بدورها علمية .

— أن العلم فى نطاق العقيدة دائماً علم بناء ، علم فى إتجاه الخير والإعمار .

---

(١) سورة محمد ، آية ١٩ .

— أنه علم الحضارة والتحضر ، علم الحياة والتقدم والازدهار .

— وأنه يدخل فى صميم دور الإنسان فى بناء الحياة والحضارة .

العمل :

إذا كان العلم أساساً فى بناء الحضارة ، فإن العمل بكل مستوياته ومناشطه أساس كذلك، إن الحياة لاتستقيم إلى بعلم يثمر العمل ، وبعمل يرتكز على العلم .

والعقيدة الإسلامية وهى تضع منهج بناء الحياة ، تستدعى العمل استدعاء قوياً وتستحث الإنسان دائما أن يكون عاملا ساعيا كادا جادا ، دليلنا على ذلك :

١ — أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مزودا بأدوات العمل والإنجاز ، من اليد والرجل والعين والسمع واللسان والشفتين ، وجعله فى أحسن تقويم ، فسواه على قامة منتصبة وطوع أعضاءه لإرادته ، وجعل هذه الأعضاء على نحو تؤدى به وظائفها ، ومن ثم لا نجد غير الإنسان من قام بالدور الفاعل فى تطوير الحياة ، الدور الذى استقام على سوق ، من أقواها ساق العمل ، إذ لولا العمل ، ولولا استعداد الإنسان للعمل ، لكان للحياة وجه آخر .

٢ — أن الحق تبارك وتعالى لما أراد الإنسان خليفة ، وأراد منه الإعمار ، وزوده بأدوات العمل ، أعانه على ممارسة هذا العمل والإقبال عليه . حيث :

(أ) ربط الرزق — مع ضمانه — بالسعى والعمل « هو الذى جعل

لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور »[1] .

(ب) أودع فيه الرغبة إلى حب المال والولد والملذات ، وكلها تطلب بالعمل ، وتحفز عليه « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . . »[2] الآية .

(ج) جعل الله تعالى الإنسان هو الكائن الأرضى الوحيد الذى يستطيع اكتساب الخبرات ، وتكريسها واستغلالها . بما أوتى من عقل وذاكرة ، وقدرة على ممارسة العمل ، واكتساب الخبرات لا شك يثقل فى ميزان العمل ، ويجعل من العمل أداة للتقدم والتطور والتعاون المثمر بين بنى البشر والأجيال والأمم .

(د) أن كمال الإيمان فى ممارسة العمل ، والعمل الصالح ، مع كون الجزاء عند الله تعالى مرتبا على الإيمان والعمل معاً . يهدينا إلى ذلك آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، تعز على الحصر هنا ، نذكر منها على سبيل المثال: «والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[3] ، ونذكر قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة . . . » الآية[4] .

ونلحظ فى الآية الأخيرة الربط بين الإيمان والعمل الصالح والحياة الطيبة ، وهو ما له دلالته هنا من الدفع إلى العمل والتأكيد عليه ، فالحياة الطيبة وقودها العمل ، وأساسها الإيمان ، ويتركز كل ذلك فى قوله تعالى:

---

(١) الملك ، آية ١٥ .
(٢) آل عمران ، آية ١٤ .
(٣) سورة العصر .
(٤) النحل ، آية ٩٦ .

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . . .»[1] الآية .

وإذا كان كمال الإيمان فى العمل الصالح ، فإن كمال العلم فى العمل النافع ، فى القرآن الكريم : «إن الله لا يحب الفساد» ، وفيه : «وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» ، وفى الحديث : « اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، وأعوذ بك من هؤلاء الأربع »[2] .

(هـ) ولأن العمل فى اتجاه الحضارة والحياة هو جهد إنسانى ، فقد سخر الله سبحانه وتعالى الطبيعة والكون للإنسان ، إعانة له على العمل ، وعلى تيسير هذا العمل ، بل إغراء للإنسان على أن يعمل مستفيدا بما يسره الله سبحانه وتعالى من قوى هائلة وطاقات فائقة فى السموات والأرض ، لولاها لتصلبت حركة الإنسان ، وجمدت إمكاناته .

(و) ونقول : إن وظيفة الخلافة التى نيطت بالإنسان ، ومهمة الإعمار التى حملها ، لا تؤديان قطعاً إلا بالعمل ، فكأن الحق تبارك وتعالى لما ناط بالإنسان هذين الأمرين ، طالبه بالعمل لا بالقعود ، وبعمل الخير ، لا بالإفساد ، والتفريط من ثمة فى العمل هو تفريط فى داعى وجود الإنسان على الأرض ونزوله إليها . بل هو خيانة لأمانة تحملها وإخلال بعهد تعهد به ، بل إن العلم الذى امتاز به آدم على الملائكة الذى هو علم الأسماء كلها ، لا يفهم إلا على أنه علم التعامل مع الأشياء ، إعدادا لوظيفة الخلافة ، التى لا تعنى فى حقيقتها إلا الحضارة .

(١) النور ، آية ٥٥ .
(٢) رواه الترمذى فى الدعوات .

إن العقيدة الإسلامية وهى تصوغ منهج بناء الحياة تنظر إلى العمل مطلقاً على أنه مطلوب أساساً ، وتضعه فى دائرة الإيمان ، بل تجعل له منطلقاً إيمانياً ، بحيث يؤدى التفريط فيه ، أو الميل به عن غاية الصلاح والإصلاح إلى خلل فى منظومة الإيمان .

القـوة :

لا تستقيم الحضارات إلا تحت راية القوة ، والعقيدة الإسلامية تقيم الحياة القوية فى كافة نطاقاتها ومستوياتها ؛ قوة الفرد ، قوة الجماعة ، القوة المعنوية ، القوة المادية . . . . إلخ

يدلنا على ذلك :

١ — صياغة الإنسان صياغة إيمانية نفسية عقلية علمية ، على نحو ما قررناه سابقا ، وهنا يتجسد مستوى من القوة الحضارية ، فى قوة الإنسان بانى الحضارة .

٢ — إقامة الحياة على أساس من العلم والعمل ، على نحو ما أوضحنا ، وعلى أساس من القيم والنظم والتوحد — على نحو ما سنوضح — ، وكلها عناصر فى بناء القوة ، وقوة البناء .

٣ — فى ظل الطابع التوحيدى للعقيدة الإسلامية ، حيث الناس جميعا خلق الله وعباده ، وحيث كلهم من ذكر وأنثى ، وحيث كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وحيث كلهم كأسنان المشط لا فضل لأحدهم على آخر إلا بالتقوى .

هذه التوجيهات العقدية ، تتوارى فى ظلها اعتبارات الجنس واللغة واللون والأرض والمصالح الأرضية ، وفى توارى كل ذلك توارى أسباب الفرقة والاختلاف ، وحلول أسباب الوحدة والقوة والتماسك

والتعاون والتراحم، والأخوة، تحل أسباب قوة الحياة، قوة الحضارة، قوة البنيان.

٤ — ومن داخل هذا الطابع التوحيدى كذلك، جاء قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...»[1]، فالتنوع هنا إلى شعوب وقبائل غايته التعارف، تعارف الجماعات والتجمعات، إذ لولا هذا التنوع لتعذرت عملية التعارف بل صارت مستحيلة.

إن التنوع هنا رمز إلى الخصوصية التى لابد منها للجماعات والشعوب، وليست هى الخصوصية العازلة، بل هى الخصوصية الجاذبة المنجذبة، نحو التعارف، والتقارب، هى الخصوصية التى لا تعطى لصاحبها امتيازاً على محاور الجنس والأرض، بل خصوصية تنافسية نحو غاية واحدة هى التقوى. «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[2].

إن التنوع هنا قوة، لأنه تنوع يقر بالخصوصية فى داخل التعارف والتقوى.

٥ — ولأن القوة عنصر عقدى، وجدنا:

— أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف — كما صح فى الحديث — وأن القرآن الكريم يعيب الضعف ويتوعد المستضعفين، حيث يقول سبحانه: «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا»[3].

(١، ٢) الحجرات، آية ١٣.
(٣) النساء، آية ٩٧.

— ولأن الإنسان هو خاتمة القوة فى الحياة والحضارة، وهو بنيان الله تعالى، فقد جاء الأمر للإنسان بأن ينال ما يحفظ عليه قوته، فأمر بالأكل والشرب: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»[1]، وفى الجنة حيث كان آدم وحواء، جاء الأمر الإلهى، «وكلا منها رغدا حيث شئتما....»[2]، وجاء التأكيد على طلب الرزق بالعمل والمشى فى مناكب الأرض، وجاءت الدعوة إلى الأكل من الطيبات «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله...»[3] الآية، «يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً...» الآية[4].

ومع ذلك ورد النهى عن شرب الخمر والزنا. كما ورد النهى عن الإسراف فى الأكل والشرب، كما لفت القرآن إلى امتنان الله تعالى على الإنسان بما يؤويه ويحفظه من الثياب والمأوى «والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون»[5]، كما ورد النهى عن إلقاء الإنسان

(١) الأعراف، آية ٣١.
(٢) البقرة، آية ٣٥.
(٣) البقرة، آية ١٧٢.
(٤) البقرة، آية ١٦٨.
(٥) النحل، آية ٨١.

نفسه فى التهلكة ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[1] ، وجاء الإجماع على أن حفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل من مقاصد الدين الضرورية القطعية .

كل ذلك وغيره إنما هو سبيل إلى توفير القوة البدنية والمعنوية للإنسان حيث يقوم بواجب الخلافة والإعمار ، واجب بناء الحياة والحضارة ، وفى هذا الصدد جاءت التوجيهات الإسلامية إلى التعاون ، والتراحم والتآخى والتواصى بالحق وبالصبر ، والتداوى ، وفعل الخير ، تدعيما لعنصر القوة فى الجماعة والمجتمع .

القيم :

إن القيم على كافة مستوياتها ، هى دائما دعامة صلبة ، من دعامات البناء الحضارى ، والبقاء الحضارى كذلك .

فالحضارة التى تعى قيم الحق والخير والجمال ، هى الحضارة التى يحق لها أن تسود وتقود ، ولها أن تبقى فلا تبيد .

والعقيدة الإسلامية ، وهى تبنى الحياة عنصراً من عناصر بناء الحضارة ، تفرض القيم جميعاً ، وتؤكد عليها عبر منظومتها الواسعة ، وفى كل ما تلزم به من عناصر إيمانية فى جانب الله تعالى وجانب الرسل (صلوات الله عليهم) ، واليوم الآخر ، وغير ذلك ، ولو ذهبنا نستقرىء علامات العقيدة الإسلامية فى اتجاه القيم ، لاتضح لنا :

١ — أن العقيدة الإسلامية فى أسسها موقف قيمى أخلاقى ، حيث يكون الإيمان بالله تعالى ربا وإلها ، خالقا رازقا ، بيده ملكوت كل

(١) البقرة ، آية ١٩٥ .

شىء ، له الصفات العالية والأسماء الحسنى . . . الخ موقف تفرضه الأخلاق فى أعلى مستوياتها ، وفى قمة تجردها واستقامتها .

إن نظرة الإنسان إلى نفسه وذاته ، ثم إلى ما ومن حوله ، تحرك لديه قيما أخلاقية لعل منها قيمة الإيمان ، ومعها قيمة الامتنان ، ومن ثم قنع عديد من الفلاسفة ، بأن قضية الإيمان هى قضية أخلاقية يفرضها الواجب الأخلاقى ، قبل أن تفرضها قضيات العقول ، ولا يغيب عنا هنا الفيلسوف الألمانى (كانت) ، الذى استبعد العقل النظرى عن القضية الدينية ، وأوكلها إلى الأخلاق .

٢ — ثم إن القاعدة الإيمانية فى الإسلام توجب الأخلاق ، أخلاق الفضيلة والخير ، حيث تلزم بطاعة الله تعالى فى أوامره ونواهيه ووصاياه ، وقد اشتملت أوامره سبحانه ونواهيه ووصاياه على التوجيه إلى الأخذ بمكارم الأخلاق ، واجتناب رذائلها .

٣ — أن العقيدة الإسلامية تفرض العبادة كحق للخالق على المخلوق « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »[1] ، « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه . . . »[2] الآية .

هذه العبادة فى معناها الشامل الذى عبر عنه الإمام ابن تيميه رضى الله تعالى عنه ، بقوله : « العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »[3] .

(١) البقرة ، آية ٢١ .

(٢) الأنعام ، آية ١٠٢ .

(٣) العبودية ابن تيمية ، ص ٦ ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ — ١٩٩٩ م مكتبة المدينة المنورة .

هذه العبادة في معناها الشامل ، تتسع لتشمل الفرائض والأركان التعبدية من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وتشمل كذلك العبادات التطوعية من ذكر وتلاوة قرآن ودعاء واستغفار . . . ، كما تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد ، وتشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها من صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وغير ذلك ، كما تشمل الأخلاق الربانية ، من حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ ، وخشية الله تعالى والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه وغيره .

كما تشمل وجوب الأخذ بالأسباب ، والتزام السنن الكونية التي بثها الله تعالى في كونه .

إن العبادة بذلك وغيره على نحو ما عرض له وفصله ابن تيمية في رسالته المسماة (العبودية)[1] لا شك تفرض القيم بكل اتجاهاتها وعناصرها ، فالإنسان العابد هو من يقوم بالدين فعلا وأداء ، ويلتزم القيم خلقا وسلوكا فإذا ما تذكرنا هنا قوله تعالى: « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[2] علمنا يقينا أن العبادة بكل ما تعنيه ، هي مطلب عقدي إيماني ، ونهج يقتحم الحياة كلها ، بالعمل والسعي والقيم والخير ، للفرد والجماعة والمجتمعات .

٤ — ما تنبه إليه العقيدة الإسلامية من منظومة التسخير ، تسخير الناس بعضهم بعضا ، وتسخير الكون للإنسان ، يفرض قيم التعاون والتساند ، وجماعية التوجه نحو ما يفيد وينفع .

٥ — ما تنبه إليه العقيدة الإسلامية من قيمة التعارف بين القبائل

(١) راجع ص ٦ ، وما بعدها (مرجع سابق) .
(٢) الذاريات ، آية ٥٦ .

والشعوب وهي قيمة ترسي أخلاق التآلف والتقارب وتبادل والمنافع ، وتفاعل الحضارات ، وتكامل حياة بني البشر .

٦ — ما تنبه إليه العقيدة الإسلامية من حقيقة الأصل الواحد لبني البشر ، يرفع قيم المساواة والعدل والإخاء ، وما تنبه إليه من الربط بين الإيمان والعمل الصالح ، يرفع من قيم الإصلاح والإجادة والإتقان .

٧ — ما تنبه إليه العقيدة الإسلامية من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، فيه الرغبة إلى دفع الإنسان إلى أن يتشبه بصفاته وأسمائه تعالى على قدر الطاقة البشرية ، أي التخلق بأخلاق الله تعالى بأن « يأخذ من كل إسم إلهي وصفا يناسب ضعف بشريته وقصورها ، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى (الرحيم) معنى الرحمة على قدر قصور البشر »[1] .

٨ — والعقيدة الإسلامية هي التي تلفت إلى قيمة الحرية ، بما تؤكد عليه من التوحيد الخالص لله تعالى ربا وإلها ، وهي التي تفرض احترام العقل والفكر ، حين يُبنى الخيار العقدي أساسا على القناعة وحرية الإرادة ، نقرأ في ذلك قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[2] ، وقوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ... »[3] الآية .

ألا ترون من كل ذلك وغيره أن القيم الفاعلة في اتجاه بناء الإنسان والحياة والحضارة هي من إملاء العقيدة الإسلامية ، ويحق لنا الآن القول

(١) الفكر الإسلامي ، مجموعة ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ، ص ١٢١ ، ط ١ ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م .
(٢) يونس ، آية ٩٩ .
(٣) البقرة ، آية ٢٥٦ .

بأن العقيدة فى الإسلام أخلاقية ، والأخلاق فى الإسلام عقدية ، ونقول كذلك : إن الحياة فى منظور العقيدة الإسلامية هى نسق من قيم عالية تؤتى ثمار الخير والنور فى كل اتجاه ، ونقول : إن التفريط فى منظومة القيم بتغييبها أو تغيب بعضها فيه إخلال بالإيمان ، وإضعاف لقواعد الحضارة والحياة .

النظام :

لا بد للحياة والحضارة من نظام يمسكها ، وشريعة تهديها ؛ وقانون يضبطها ، حتى تنتظم العلاقات ، وتحترم الحقوق والواجبات ، وينشر الأمن ، ويقام العدل ، ذلكم هو وسم الحضارات ، والحضارات القوية .

والعقيدة الإسلامية تؤكد على :

١ — ضرورة وجود نظام وشريعة .

٢ — ضرورة أن يقام هذا النظام وتلكم الشريعة .

٣ — وضرورة أن يكون النظام والشريعة بحيث يعمان الإنسان والحياة بكل جوانبها ومناحيها وعلاقاتها ، وبمعنى آخر : هو أن يكون التشريع « لا على مستوى الإنسان فحسب ، ولا على مستوى الأرض فحسب ولا على مستوى الدنيا فحسب ، بل على مستوى الكون كله . . . لأن للإنسان صلة وتأثرا وتأثيراً بذلك كله »[1] .

٤ — وضرورة أن تكون الشريعة والنظام صالحين مصلحين ، كاملين مكتملين ، يؤصلان قيم العدل والمساواة ، ويرسمان منهج الحياة الرائعة .

(١) الفكر الإسلامى ص ٧٥ ، مرجع سابق .

٥ — ثم ضرورة أن تحترم الشريعة والنظام ، بحيث يذعن لهما الناس أجمعين ، وبحيث يكونان مفروضين من قبل مشرع ومنظم ، عالم بالمصالح محيط بالحاجات والعلاقات ، حتى لا يكون هنالك تشريع أو نظام يزاحمه ، أو يكمله .

إن كل ذلك تعطينا إياه العقيدة الإسلامية ، بصورة قوية ومباشرة ، وتؤكد عليه وتدعمه .

ودليلنا على كل ذلك :

١ — تربط العقيدة الإسلامية بين طرفين اثنين يرتبطان ارتباط اللزوم وعدم الانفكاك ، هما ما جاء التصريح بهما فى قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر »[1] ، فالخلق من الله تعالى ، وحيث هو الخالق فهو الآمر ، ونقول فى ضوء ذلك :

— إن الأمر من مقتضيات الخلق ومن لوازمه .

— وإن المخلوقين المشمولين بالخلق ، لا بد لهم من أمر ، ولا غناء لهم عنه .

— وإن الأمر هنا يفهم على أنه ما به التوجيه والهداية لهؤلاء المخلوقين ، فهو إذن شرع الله الحاكم ونظامه القائم .

— وإن المخلوقين ، ليس لهم أن يأخذوا أوامرهم إلا ممن خلقهم سبحانه .

— إذن لا بد من شرع ونظام ، ولا بد من أن يكون المنظم المشرع هو الخالق سبحانه ، لأنه خلق ، ولأنه خالق فهو يعلم من خلقه ويعلم حاجته « ألا يعلم من خلق »[2] .

(١) الأعراف ، آية ٥٤ . (٢) الملك ، آية ١٤ .

٢ — فى كون الله تعالى هو المشرع الضمان الأكيد ، لأن يكون التشريع كاملا ، والنظام شاملا ، ولأن يكون التشريع والنظام معاً محترمين ملزمين مطبقين .

فـ « التشريع لكائن ما ، يعنى أن المشرع يصنع له خطة بنائه وخطة تشغيله ، وإذن فإنه يلزم فى صفات المشرع أن يكون عالما بكل شىء يتصل بما يشرع له . . .

وهكذا يمكن أن نقول : إن العليم بكل شىء هو وحده الذى يحق له أن يشرع للإنسان . . . ومن هنا يمكننا أن نقرر أن التشريع هو من حق العالم الصانع الخالق »[1] سبحانه .

وحيث هو سبحانه المستحق وحده لأن يكون هو المشرع ، من حيث إنه خالق عالم ، فإن شرعه سبحانه حرى بأن يحترم ويطبق ، إذ يكون العمل بالشرع والالتزام به عملا عبادياً ، فيكون عبادة وطاعة ، لأن (من يشرع لك يستعبدك) بالدخول فى حوزته ونظامه وتشريعه ، ثم « إنه من البديهى . . . أن بناء أى صناعة أو تشغيلها ، إذا لم يكن على حسب مواصفات أوامر الصانع العارف بصناعته ، فإنه يؤدى إلى دمارها ، وإلى خروجها عن أهدافها . . وكذلك الإنسان .

عليه أن يلتزم بورقة البناء والتشغيل التى وضعها الصانع ، أى بالشريعة الإسلامية ، التى أنزلت إليه . . . »[2] .

٣ — ومن جهة أخرى ، فإن العقيدة الإسلامية ، من داخل عقيدة التوحيد ، تطرح قضية الحكم ، والحكم بما أنزل الله تعالى .

(١) الفكر الإسلامى ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، مرجع سابق .
(٢) المصدر نفسه ص ٧٥ .

فالتوحيد الخالص هو التوحيد بكل جهاته ومعانيه ، من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، ومع كل ذلك توحيد الحاكمية ، بمعنى أن تكون شريعة الله تعالى هى الحاكمة ، ومن ثم قرن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى فى القرآن الكريم بالكفر والفسوق والظلم ، إشعاراً بأنه خروج عن مقتضيات الاعتقاد التوحيدى الصحيح .

من ثم كانت قضية الحكم والتشريع تطرح مباشرة قضية عقدية ، هى : من المعبود ؟ وقضية من المعبود ، ليست متعلقة بالآخرة وحدها ، ولكنها من صميم الحياة الدنيا ، وأن الجواب على هذه القضية لا يتوقف عليه مصير الإنسان فى الآخرة وحدها ، بل يتوقف عليه مصيره هنا فى الحياة الدنيا . . . إنه . . . يترتب عليه فى الوقت ذاته إجابة على سؤال مهم فى حياة البشر على الأرض ، وهو : من المشرع ؟»[1] .

إذن قضية من المعبود ؟ « ليست قضية غيبية خاصة بالآخرة . . . ولكنها بالإضافة إلى كونها متعلقة بالآخرة قضية من صميم الحياة الدنيا . لأنه يترتب عليها تقرير من المشرع ؟ أى (من واضع منهج الحياة للناس) ؟ . . . وأنه حين لا يكون الله تعالى هو المعبود وحده بلا شريك تختل الحياة بجملتها ، ويقع الناس فى الخبال »[2] .

ومن ثم فإن عقيدة التوحيد تنبه مباشرة إلى قضية الشرع الحاكم ، ثم أن يكون هذا الشرع هو شرع الله تعالى ، بل إن الشريعة تصير من مقتضيات العقيدة وفروضها ، مقتضيات شهادة التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله . . .

(١) راجع مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ص ٢٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .

٤ — وإذا قلنا إن العقيدة تفرض الشريعة ، وتفرض شريعة الله تعالى ، فلنا أن نقول :

— إنها الشريعة الكاملة الهادية الموحدة ، الوافية بحاجة الإنسان والحياة .

— إنها الشريعة الواعية بمتطلبات الزمان والمكان ، القادرة على المواكبة والمواءمة .

— إنها الشريعة المحركة الدافعة النافعة .

— إنها الشريعة الداعية للعدل والحرية والمساواة والأمن والأمان وقيم الحق والخير والجمال .

— إنها الشريعة التي تحترم الخصوصية والتنوع ، وتقدر حاجة الفرد والجماعة والعمران .

— إنها الشريعة الواعية بالثوابت ، الراعية لفطرة الإنسان ومكوناته .

— إنها الشريعة الإنسانية العالمية ، التي تعطي بعداً عالمياً للحضارة .

— إنها الشريعة المستجمعة لكل أوجه النظام ، والعلاقات ، والمقاصد والغايات .

— إنها الشريعة القائمة على رعاية حقوق الإنسان ، بل وحقوق الأحياء .

— إنها الشريعة التي تتوفر على مصالح العباد في كل مستوياتها : الضرورية ، الحاجية ، والتحسينية ، بما لانجد له نظيراً في شرائع البشر الوضعية .

٥ — إن الحق تبارك وتعالى لما أراد للإنسان أن يكون خليفة ، مستعمراً ، تعارفيا ، مسخراً مسخراً ، مصلحا لامفسدا ، عاملا لاقاعداً ،

لم يتركه هملا ، بل أرسل إليه رسلا مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب ، بشرائع وبيانات ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، وحتى لاتكون على الله حجة بعد الرسل ، وجاءت شريعة الإسلام الخاتم ، خاتمة عامة ، صالحة لكل زمان ومكان ، ترتكز على الوحي من القرآن الكريم والسنة ، وتتسع للاجتهاد والقياس ، وتستدعي العقل مجتهداً قائما ، فتنامت مصادر التشريع وتكاثرت ، وتعاونت على سد الحاجات ، واستيعاب المستجدات . وواكبت تطور الحياة في كل اتجاهاتها . فاستجمعت معالم الشرع الجامع ، والنظام الكامل ، والقانون الشامل ، ولازالت وستظل ، مدداً لاينضب وفيضا لايغيض .

لقد رحم الله الإنسان ، لما أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب هدى ونوراً ، لممارسة الحكم بما أنزل الله تعالى ، وما كان الإنسان ، ولايزال ، في غنى عن شرع الله تعالى ، ولا هو مستغن بعقله عنه ، بل إن فترات الضلال البشري هي فترات ركوب مطية العقل . وفتور الوحي .

ما كان يراد من الإنسان أن يمارس وظيفة الخلافة والإعمار ، وهي وظيفة جد خطيرة ، وأن يتفرغ لها ، ثم يترك ليتيه في ساحة الحياة لايدري أين يتجه .

من هنا كان التشريع ضرورة ، وكان تشريع الله سبحانه هو صميم هذه الضرورة . إن الحكم بغير ما أنزل الله هو اتباع للهوى ، والهوى ضلال ، والضلال ضياع . « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . . . »[1] الآية ، (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي)[2] .

(١) المائدة ، آية ٤٩ .

(٢) أخرجه الحاكم بهذا اللفظ في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند أبي داود وابن ماجة والإمام مالك بمعناه من طرق أخرى .

٦ — ومن عظمة التشريع الإلهى ، والتزامه وتطبيقه ، أنه فى دائرة الطـــاقة والقدرة البشرية « لايكلف الله نفساً إلا وسعها . . . »[١] ، « لايكلف الله نفساً إلا ما آتاها »[٢] . وكل ماجاء به وجاء فيه مما يظن أنه مشقة ، فهو من قبيل المشقة المحتمله ، وحين تكون المشقة فوق الطاقة أحياناً يأتى التخفيف والتيسير ورفع الحرج .

وفى كل ذلك رعاية لفطرة الإنسان ورحمة به ، وتحفيز له على الإقبال على شرع الله تعالى واللياذ به .

إن المعنى هنا هو ما نبهت إليه عقيدة الإسلام السمحاء ، فى قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ... »[٣] الآية .

٧ — فى ضوء كل ذلك نعلم أن العقيدة الإسلامية تعطينا الشريعة الحاكمة . والنظام الحكيم أساساً من أسس الحياة والتحضر ، وتؤكد ضرورة أن تقام الحياة والحضارة على ضوابط قانونية ، يزجيها شرع الله وشريعته ، ويغذيها قرآنه تعالى وسنة رسوله الكريم .

وكأن عقيدتنا لايتصور معها حضارة خلو من التشريع والقانون ، ومن التشريع والقانون الإلهى ، المحيط بحاجة البشر والأحياء .

وكأنها تنبه بقوة إلى أن وجود الحضارة وبقاءها رهن بوجود وبقاء القانون والتشريع والنظام .

وكأنها تقول أخيراً : إن قضية الشرع الحاكم والنظام السائد هى

(١) البقرة ، آية ٢٨٦ . (٢) الطلاق ، آية ٧ .
(٣) الروم ، آية ٣٠ .

قضية إيمانية بالدرجة الأولى . المفرط فيها مفرط فى إيمانه ، والعامل بها مستكمل لإيمانه .

• • •

وفى ختام هذا البحث المجمل نسبياً ، يتضح لنا أن العقيدة الإسلامية هى منطلق التحضر الإنسانى ، وأن الفكر الحضارى فى أعمق صوره يتأصل بالعقيدة الإسلامية ، فيدخل فى دائرة المنظومة العقدية للإسلام ، للتأكد على أن الحضارة ضرورة عقدية إيمانية ، قبل أن تكون حاجة بشرية عمرانية ، وأن العمل فى اتجاه التحضر هو من أس الإيمان وكماله .

وأن إرادة البعث الحضارى الإسلامى ، بل الإنسانى ، لابد أن تبدأ من المرجعية العقدية ، والمنهجية العقدية كذلك .

وقد شادت عقيدة الإسلام حضارة عالية غالية ، ظلت قوية بقوة المرجعية العقدية ، ولما ضعفت ضعفت .

ذلكم هو درس التاريخ ، فإن أردنا عوداً حميداً ، وبعثاً جديداً ، وانطلاقا رشيداً ، وصموداً حديداً ، وانتصاراً سعيداً ، فى خضم فكر العولمة وصراع الحضارات . فليس هنا لك من سبيل غير سبيل استعادة علاقتنا الواعية بالعقيدة ، وتصوراتها وفرضياتها ومقتضياتها ، وإلا فلن تعدو جهودنا جهود الظمآن من السراب .

والله من وراء القصد

أ . د . أحمد عبده حموده الجمل